

محطات في تطور النقد التاريخي عند المسلمين والغربيين

Landmarks in the Development of Historical Criticism Among Muslims and Westerners

✍ محمد عيساوة

جامعة عنابة (الجزائر)

aissaouamed@yahoo.com

ملخص:	معلومات المقال
يتناول هذا المقال محطات في تطور النقد التاريخي عند المسلمين والغربيين، ويبرز بشيء من التفصيل الآليات المبتكرة في عملية النقد التي مارسها المسلمون والغربيون عبر مختلف العصور الزمنية، وذلك من أجل الانتقال من مرحلة القراءة والاقتباس لمختلف الوثائق والنصوص التاريخية إلى مرحلة الفحص والتدقيق، ومن هنا تأتي أهمية هذه العملية على اعتبار أنها ضرورية للوصول إلى الحقيقة التاريخية، وتمييز الأخبار الصحيحة من الزائفة، وعليه فالقدرة على فهم النصوص التاريخية وتحليلها وتفسيرها واستخلاص الحقائق منها لا تتأتى للباحث إلا من خلال ممارسته للنقد التاريخي.	تاريخ الارسال: 2023/10/16 تاريخ القبول: 2023/11/29 الكلمات المفتاحية: ✓ النقد التاريخي ✓ المسلمين ✓ الغربيين ✓ الحقيقة التاريخية
Abstract:	Article info
This article discusses pivotal points in the evolution of historical criticism among Muslims and Westerners. It highlights, in some detail, the innovative mechanisms employed in the process of criticism practiced by Muslims and Westerners across various historical eras. The objective is to transition from the stage of reading and quoting various historical documents and texts to the phase of examination and verification. This underscores the significance of this process, as it is crucial for reaching historical truth and distinguishing accurate news from fabricated ones. Thus, the ability to comprehend historical texts, analyze them, interpret them, and extract facts from them is only achieved by researchers through the practice of historical criticism.	Received: 16/10/2023 Accepted: 29/11/2023 Key words: ✓ Historical Criticism ✓ Muslims ✓ Westerners ✓ Historical Truth

يُعتبر التاريخ الشّاهد الوحيد على أحداث الماضي والحاضر، وما يُمكن أن يُسفر عنه المستقبل، فهو ليس علم الماضي فحسب، بل هو علم الحاضر والمستقبل في واقع الأمر وحقيقته، فالأمة التي تستطيع البقاء هي التي لها ضمير تاريخي تعي به ماضيها، وتُفسّر حاضرها، وتستشرّف مُستقبلها، ولَمّا كان التاريخ على هذا الوجه من الأهمية، فقد توجّب على دارسيه والباحثين فيه التعمّق في فهمه وتفسيره وتحليله، ولا يتأتّى لهم ذلك إلّا من خلال اكتشافهم لمختلف طرق وأدوات النقد التاريخي، وقد حاول المؤرّخون المسلمون والغربيون على مرّ العصور استخدام منهج النقد التاريخي في التعامل مع مصادر المعلومة، وعدم التسليم بالوقائع والأحداث التاريخية، وكانوا في كلّ مرّة يطورون من منهجهم من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

فعند المسلمين عرف منهج النقد التاريخي عدّة مراحل استُخدمت فيها آليات مختلفة، كان الهدف منها التّمييز بين الأخبار الصّحيحة والزّائفة، أمّا عند الغربيين فقد عرف منهج النقد التاريخي عندهم هو الآخر طفرات متنوعة من أجل إدراك المعنى الحقيقي للنّص، ومعرفة الغرض من كتابته. انطلاقاً من هذا التّمهيد نحاول في ورقتنا البحثية هذه الإجابة عن التساؤلات التالية:

- ما هو مفهوم النقد لغة واصطلاحاً؟
- ما الفرق بين النقد التاريخي ومنهج البحث التاريخي؟
- كيف تطوّر النقد التاريخي عند المسلمين والغربيين؟ وما هي أبرز مراحلها؟

1. مفهوم النقد لغة واصطلاحاً

1.1. لغة

يعني تمييز وتمحيص صحيح الكلام من سقيمه، وأخذ في الأصل من عمل الجهد الذي كان يُميّز بين النّقود صحيحها من رديئها⁽¹⁾، ثمّ تطوّر المعنى قديماً وأصبح يُستخدم في التّمييز والتحليل، من ذلك أنّ المؤرّخ الحافظ الذّهبي (ت748هـ) ألف كتاباً: سمّاه "ميزان الاعتدال في نقد الرّجال"، وسمّى ابن القيم الجوزية (ت751هـ) كتاباً له "بنقد المنقول".

2.1. اصطلاحاً

هو فن دراسة النّصوص والتّمييز بين الأساليب المختلفة⁽²⁾، أمّا المقصود به عند المُحدّثين فيعني: مناهج وطرق لمعرفة صحيح الأحاديث من ضعيفها، والمطلوب تطبيق هذه المناهج نفسها على الرّوايات التاريخية من خلال نقد أسانيدّها ومتونها، إذ الاكتفاء بنقد المتن وإهمال الأسانيد، يوقع الدّارس في حيرة كبيرة، أمام الرّوايات الكثيرة المتعارضة عندما تكون متونها جميعاً متّقة مع المقاييس والقواعد النّقديّة العقلية⁽³⁾.

وهناك فرق بين النقد والانتقاد. فالنقد هو: إظهار الخطأ والصّواب، والإيجابيات والسّلبات أمّا الانتقاد فيعني: إظهار الجانب السّلب فقط؛ وبصفة عامّة النقد هو عملية فكرية تمحيصية تحليلية تركيبية، تهدف إلى التّمييز وتحقيق المصادر التاريخية لمعرفة صحيح أخبارها من سقيمها.

2. الفرق بين النقد التاريخي ومنهج البحث التاريخي

يُقال أنّ المنهج والنقد هما وجهان لعملة واحدة، كما يعتبر كثير من المؤرخين أنّ مجال النقد التاريخي هو جزء من منهج البحث التاريخي، إلا أنّهما في الحقيقة مختلفان.

فالمنهج يُعَلِّم الطالب مناهج كتابة التاريخ، وكيفية اختيار موضوع البحث، وطريقة إعداد الخطة العملية النموذجية، وكيف يُحدّد إشكالية بحثه، وأهدافه المُتوخّاة، وكيف يتعامل مع الدّراسات السابقة، كما يتم فيه التّعرّف على أنواع الملاحق وأهميّتها، وكيفية إعداد الفهارس، وكيف يتعلّم تقنية التّعامل مع المصادر والمراجع، وأساليب توثيقها، وكيفية الوصول إلى المعلومة، واستخدامها، وتصنيفها، وتنظيمها؛ وكذلك التّعرّف على أخلاقيات البحث العلمي من حيث الأمانة العلمية والموضوعيّة، وكيفية الاستفادة من العلوم الأخرى لفهم التاريخ، ومن ثمّ تطبيق كل نقطة على حدى، وبعدها يقوم بتطبيق عملي بإعداد بحثه ومناقشته⁽⁴⁾.

أمّا **النقد التاريخي** فهو التّحقيق مع النّص التاريخي الذي بين أيدينا، وفيه حساسية ودقة، والنقد عمليّة فكرية لتقويم وضبط النّص، وتقرير أصالته ومصداقيّته، وقبوله كحقيقة علميّة⁽⁵⁾.

وعليه فالنقد التاريخي هو مرحلة لاحقة، وهو منهج أرقى بكثير، لا يُمارسه إلا من عرف وطبّق، بعكس المنهج الذي يُمارسه ويتّفق على قواعده الجميع، أمّا الذي يُمارس النقد فيجد نفسه يتعامل مع مؤلّفات الآخرين، ويضعها موضع الشّك، بل يتعدّى ذلك إلى قراءة أفكارهم، والتّعرّف على نواياهم، والدّخول إلى باطن عقولهم لمعرفة ما هو صحيح وما هو مزور، وما هو صادق وما هو كاذب، وما هو مُحايد وما هو مُنحاز، وما هو شاهد وما هو ناقل، وما فيه أمانة وما فيه تدليس، ولمعرفة المجهول وتصحيح المعلوم؛ وكلّ ذلك لا يكون إلا من خلال التّطبيق العملي على الوثائق وممارسة قواعد النقد، ومناقشتها، وتصويبها، وتقويمها⁽⁶⁾.

3. تطوّر النقد التاريخي عند المسلمين

كان المؤرّخون في الفترة القديمة مُجرّد ناقلين لأخبار الأمم السابقة لهم، دون تحقيق ولا تمحيص للأحداث والوقائع، وبقوا على هذا الحال إلى غاية القرن الأوّل الهجري وظهور الفتن، وانقسام المسلمين، وفي ذلك يقول ابن سيرين (ت110هـ/729م): "كان في زمن الأوّل النّاس لا يسألون عن الإسناد، حتّى وقعت الفتنة، فلمّا وقعت الفتنة سألوا عن الإسناد، ليُحدّث حديث أهل السنّة ويترك حديث أهل البدعة"⁽⁷⁾، وقد عرفت الأمّة الإسلامية منذ بدايتها الاهتمام بالتّاريخ، من نقلٍ للكتاب والسنّة، وكانت تتّبع عملية النّقل آلية نقدية قائمة على التّشكيك في صحّة ناقل هذه المعرفة، أو بالأحرى في صلاحية النّقل، أي نقد الناقل والمنقول "السند والمتن"⁽⁸⁾.

اهتمّت هذه الآليّة بتصحيح النّقل وتوثيقه، ليشهد علم النقد عند المسلمين بعد ذلك اهتماما كبيرا بالخبر على نسق الرواية وفق آلية "الجرّح والتّعديل"⁽⁹⁾، وكان الظهور الفعلي والاهتمام بهذه العملية في القرون الهجرية الثلاثة الأولى، والتي عُرِفَت بعصور المتقدّمين، حيث ظهرت معالم منهج نقد الخبر بشكل جلي في نهاية القرن الأوّل للهجرة، وتقدّعت أصوله تدريجيا في القرن الثاني، واكتمل في الثّالث.

وبدأ النقد عندهم بنقد السند، لأنّ أساس صحّة الرواية عند المسلمين الأوّلين كانت الثقة بالرواية من حيث العدالة والضبط، ومن تطرّق أيّ خلل إلى عدالته أو ضبطه صار مُجرّحا غير مقبول الرواية⁽¹⁰⁾. ولم يشهد القرن الأوّل-عصر الصحابة وكبار التابعين- إلّا عددا قليلا من المجروحين، يقول السخاوي⁽¹¹⁾ (ت902هـ): "ولا يكاد يوجد في القرن الأوّل الذي انقرض، في الصحابة وكبار التابعين ضعيف إلّا الواحد بعد الواحد، كالحارث الأعور (ت65هـ-684م)، والمختار الكذاب (ت67هـ-686م)"⁽¹²⁾، ولكن منذ بداية النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، انتشر "الجرح والتعديل" وأصبح علما ذا قواعد وأصول، ووفقا على الخاصة من العلماء، يقول السخاوي: "فلما كان عندهم آخر عصر التابعين وهو حدود الخمسين ومائة، تكلم في التوثيق والتجريح طائفة من الأئمة. فقال أبو حنيفة: "ما رأيت أكذب من جابر الجعفي"، وضعف الأعمش جماعة ووثق آخرون، ونظر في الرجال شعبة وكان مُتنبّئا لا يكاد يروي إلّا عن ثقة وكذا كان مالك"⁽¹³⁾.

وتجدر الإشارة إلى أنّ القواعد والأصول التي يقوم عليها علم الجرح والتعديل كانت منقسمة إلى قسمين: قواعد وأصول تختص بالعدالة، وقواعد وأصول تختص بالجرح، وقد رأى بعض العلماء تقديم الجرح على التعديل إذا تعادلا، لأنّ الجرح فيه زيادة علم ومعرفة⁽¹⁴⁾.

الترم العلماء المسلمون قواعد صارمة لنقد النصوص القديمة حيث عرفوا تفاوت أقدار النسخ المختلفة، وقدروا أهميتها وفقا لمعايير تتراوح بين قدم النسخة وصحتها ومقابلتها بغيرها، فكانوا دائما ما يسعون إلى النسخ الأمّيات، وهي النسخ التي كتبت بخط مؤلفيها أو قرأت عليهم، أو كتبها بخطه عالم شهير، وفي كلّ الأحوال كان قدم النسخة نوعا من الضمان لصحتها واعتمادها. ويرى المستشرق الألماني جوتهلّف برجستراسر (Gotthelf Bergstrasser): "أنّ علماء العرب كانوا أكثر تقديرا لقيمة المخطوطات المكتوبة بخطوط مؤلفيها عن علماء الغرب"⁽¹⁵⁾، فكانوا دائما ما يُشيرون - إذا توافر لهم ذلك - إلى أنّهم نقلوا من خط المؤلف بصيغ مثل: "قرأت بخط فلان من كتابه..." أو "وجدته بخطه" أو "ومن خطه نقلت" أو "وملكته بخطه"⁽¹⁶⁾.

ومن بين المؤرخين الذين استعملوا منهج الإسناد واستعاروه من علماء الحديث نجد الطبري (ت310هـ)، الذي كان في الأساس مُحَدِّثا ومُشتغلا بتفسير القرآن، وكثيرا ما نجده يشير إلى سلاسل الإسناد من خلال العبارات التالية: "حدثنا" "أخبرنا" "كتب" "قال" "ذكر" "روى"، و"حدثت"⁽¹⁷⁾، "ومع مرور الزمن ازدادت أهمية الأسانيد التاريخية، واتسع نطاق استعمالها، إلى درجة أنّها كثيرا ما أثقلت النصوص التاريخية، بأسماء سلاسل الرواة التاريخيين، وصار الإسناد أهم عناصر النقد التاريخي لدى كبار المؤرخين"⁽¹⁸⁾.

ظلّ مبدأ الرواية والإسناد متواترا في مناهج المؤرخين المسلمين، إلى أن ظهرت مرحلة جديدة أخرى، وهي التأريخ بالدراية، والتي تعني المعرفة المباشرة من جهة والتأويل العقلي من جهة أخرى، أضافت إلى المنهج التاريخي الموروث مصادر أخرى تُعنى بالنظر العقلي في متن النص التاريخي المنقول. وعلى عكس

مرحلة التأريخ بالرواية التي اختتمها محمد بن جرير الطبري، فقد التفت مؤرخو القرنين الرابع والخامس للهجرة إلى معانٍ واقعية، من النشاط البشري الناتج عن تعدد الدويلات الإسلامية والاختلافات الجغرافية والبشرية والمذهبية، يتضح ذلك من مؤلفات مؤرخين وجغرافيين انتظمت رحلاتهم ومشاهداتهم أقطار كثيرة من أمثال المسعودي (ت345هـ) والمقدسي (ت390هـ) ومسكويه (ت421هـ) (19).

ومع ظهور ابن خلدون (ت808هـ) يعرف النقد التاريخي طفرة نوعية في منهجه، حيث يُعرّف التاريخ تعريفاً دقيقاً، يرفع من قيمته، ويوضح أهميته البالغة، وذلك بقوله: "...فإنّ فنّ التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشدّ إليه الرّكائب والرّحال، وتسمو إلى معرفته السّوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقوال، وتتساوى في فهمه العلماء والجّهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسّوابق من القرون الأوّل، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأنديّة إذا غصّها الاحتفال، وتؤدّي لنا شأن الخليقة كيف تقلّبت بها الأحوال، واتّسع للدول فيها النّطاق والمجال، وعمرّوا الأرض حتّى نادى بهم الارتحال، وحن منهم الرّوال، وفي باطنه نظرٌ وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعدّ في علومها وخليق" (21).

يذهب ابن خلدون من خلال هذا التعريف إلى أنّ علم التاريخ في باطنه وحقيقته، هو: نظرٌ وتحقيق، وهو قولٌ ينطوي على رفض أن يكون التأريخ سرداً أو نقلاً إخبارياً، وفيه بالمقابل ضرورة إنتاج المفاهيم النظرية التي تدخل في عملية البناء العلمي للتاريخ، وفيه أيضاً إظهار لضرورة التّحقّق من صحّة الأخبار المنقولة، فما كان مُستحيلاً في أفق الفهم السّردي للتاريخ، قد صار ضرورة في أفق فهمه العلمي (22).

وبعد إعطاء ابن خلدون تعريفاً دقيقاً للتاريخ ووصف خصائصه، ينتقل إلى وصف خصائص المؤرخين، فيقول: "إنّ فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطّروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخطّطها المتطفّلون بدسائس من الباطل وهَمُّوا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المُضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير ممّن بعدهم واتّبعوها، وأدّوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يُراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتّحقيق قليل، وطرف التّقيح في الغالب قليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليق... هذا وقد دَوّن الناس في الأخبار وأكثرُوا، وجمعوا تواريخ الأمم والدول في العالم وسطّروا... والنّاقد البصير قسّطاس نفسه في تزييفهم فيما ينفّلون أو اعتبارهم، فللغمز طبايع في أحواله تُرجع إليها الأخبار، وتُحمل عليها الروايات والآثار" (23).

كما يرى في موضع آخر بأنّ الباحث في التاريخ يحتاج إلى: "العلم بقواعد السياسة، وطبايع الموجودات، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السّير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب، وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك، ومُماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بؤن ما بينهما من الخلاف، وتعليل المُتفق منها والمُختلف، والقيام على أصول الدول والملل، ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها، ودواعي كونها،

وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتّى يكون مُستوعبا لأسباب كلّ حادث، واقفا على أصول كلّ خبر، وحينئذٍ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا، وإلاّ زيّفه واستغنى عنه»⁽²⁴⁾.

وعليه نجد أنّ ابن خلدون قد ربط منهج الكتابة التاريخية بطبائع العُمران، والعلم بقواعد السياسة والطبائع وعوائد البشر، وأنشطتهم وأفكارهم ومذاهبهم، وبالتالي جعل العُمران البشري مقياسا لتمحيص الروايات والأخبار⁽²⁵⁾.

وفي القرن التاسع الهجري ظهرت نظريات أخرى في النقد التاريخي، كان من روادها مُحي الدّين محمّد بن سليمان الكافيجي (ت 897هـ/1474م) وشمس الدّين محمّد بن عبد الرّحمان السّخاوي (ت 902هـ/1497م)، حيث أقدم الأوّل على تأليف رسالة في علم التّاريخ سمّاها: "المختصر في علم التّاريخ"، عالج فيها عددا من المسائل المتعلّقة بخصائص علم التّاريخ وغرضه، وأجاب عليها مُحاولا وضع نظريّة للتّاريخ وأصوله، "وكان مصدر الإلهام المباشر في هذا المضمار هو طريقة البحث في علم الفقه، غير أنّه كرّس مجالا أوسعاً للمعضلات النّاجمة عن غموض كلمة: "تاريخ" العربية وعن مركز التّاريخ في العلوم الدّينيّة الإسلاميّة"⁽²⁶⁾.

فيما ذهب الثّاني إلى تأليف كتابيه: "الإعلان بالتّوبيخ لمن ذمّ أهل التّاريخ" و"التّبر المسبوك في الذّيل على السّلوّك"، اعتمد فيهما السّخاوي على العديد من الكتابات السّابقة له، التي بحثت في الموضوع. كما كتب جلال الدّين عبد الرّحمان بن أبي بكر السيّوطي (ت 911هـ/1516م) رسالة: "الشّماريخ في علم التّاريخ"، إلّا أنّ الملاحظ على هذه الأبحاث هو حملها في الغالب طابع الدّفاع عن علم التّاريخ، أكثر من طابع التّعقّق والتّحليل لكنّه وماهيته ومناهجه الفكرية⁽²⁷⁾.

4. تطوّر النقد التاريخي عند الغربيين

عرف منهج النقد التاريخي في الفكر الغربي ثلاث محطات لتطوّره، بدأت أولاها مع عصر النّهضة، والثّانية مع المدرسة الوضعانية، والثّالثة مع مدرسة الحوليات والتّاريخ الجديد.

ففي الأولى أرسى مؤرّخو النّهضة علم نقد الوثائق، الذي يبيّن الصّحيح من تلك الوثائق والمدلّس منها، ودراسة الحبر واللغة والكرونولوجيا والعبارات المستعملة في تلك الوثائق، وكان ذلك أولى الخطوات التي خطّها علم التاريخ بالمعنى الحديث، والتي جاءت أساسا من فئة من الرّهبان البندكتيين، المعروفين باسم رجال القديس سانت مور (Sant Moro)، وهم الذين نشطوا في الدّور الأوّل من مراحل النقد التاريخي في تجميع مصادر التاريخ الفرنسي، وكان من رواد عصر النّهضة: ليونارد بروني (Léonard Bruni) (1374/1444م) صاحب كتاب: "تاريخ فلورنسا"، الذي يُعد من أحسن المؤلّفات التاريخيّة التي خلفها عصر النّهضة، ونيكولوميكاڤيلي (Niccolò Machiavelli) (1469/1527م) وفرانشيسكو جيتشيارديني (Francesco Guicciardini) (1483-1540)، وجان مابيلون (Jean Mabillon) (1632-1707) الذي وضع مع

لوك داشري (Locke Dashery) أسس علم الوثائق السياسية أو الطريقة الناقدة للتحقق من صحة الوثائق⁽²⁸⁾.

اقتصرت معظم جهد الزهبان البندكتيين على النقد الخارجي، أي فحص مدى صحة الوثيقة وأصالتها وعدم تزويرها، وكانوا يعتبرون أن المادة التي يحتويها أي مصدر أصلي كأنها حقيقة مُسلم بها غير قابلة للطعن، ويُعتبر لويس سبستيان دي تيلمونت (Louis Sébastien de Tillemont) (1637-1698) خير من مثل المنهج البندكتي، إذ كان يتوخى الموضوعية في عمله إلى حد كبير، فجاءت أعماله واحدة من أحدث الجهود في الدراسة الناقدة للمصادر الرئيسية بكل فترة⁽²⁹⁾.

أما المحطة الثانية فقد مثلتها المدرسة الوضعانية التي أعطت أهمية بالغة للوثيقة المكتوبة، الأمر الذي أدى إلى نشر الكثير من الوثائق المصدرية، ويعتبر المؤرخ الوضعي التاريخ علما، لا يكتب إلا بلغة سليمة، واستعمال المحسنات البديعية في نظر المؤرخ الوضعي بمثابة الانحراف والضلالة، والحدث التاريخي بالنسبة للمؤرخ الوضعي كالتجربة التي يمارسها عالم الطبيعيات في مخبره، وتوجد أربع مراحل في نظر المؤرخ الوضعي لإنجاز عمله النقدي هي: - تجميع الوثائق - نقدها - ضبط الأحداث - تنظيم هذه الأحداث ضمن سياق سردي كرونولوجي⁽³⁰⁾.

وفي مبادئ المدرسة الوضعانية المؤرخ مُطالب بتجميع أكبر عدد ممكن من الوثائق والمعطيات، وبتطعيم تحاليله - على غرار عالم الطبيعيات - بالإحصائيات وبالمعطيات الرقمية وبالخطوط البيانية، وعليه أن يضع أسفل كل صفحة أو بعد كل فصل أو فقرة، الملاحظات والهوامش التي تُمكن القارئ من التثبت من صحة الوثائق المستعملة. ونقد الوثائق عند الوضعانيين نوعان: **النقد الخارجي** الذي يُثبت صحة الوثيقة وتاريخها الدقيق، وصاحبها وأصلها، و**النقد الداخلي** الهرمنطقي الذي يُثبت مصداقية مضمون الوثيقة⁽³¹⁾.

والمؤرخ في نظر الوضعانيين مُطالب أيضا عند انكبابه على كتابة التاريخ أن يتجرد من انتماءاته السياسية والثقافية والدينية والقومية، وعليه أن يترك مشاعره وعواطفه جانبا، ويُحاول أن يفهم ويُفسر، وعليه أن يبتعد عن إطلاق الأحكام، كأن يمدح أو ينوّه أو يُندد أو يتأسّف، أو يُهمل وثائق معينة عن قصد لأن محتواها لا يتماشى ونتائج حددها مسبقا، كما يستتكرون لجوء المؤرخ للحدس. ومن أشهر مؤرخي المدرسة الوضعانية الألمان: تيودور مومسان (Theodor Mommsen) (ت1903) وليوبولد فان رانكة (Leopold von Ranke) (ت1896) والفرنسي: إرنست رينان (Ernest Renan) (ت1892)⁽³²⁾.

ومع مطلع القرن العشرين ظهرت مدرسة **الحوليات** التي شكّلت قطيعة جذرية مع المدارس التاريخية الأخرى، خصوصا مع المدرسة المنهجية، واختفى معها التاريخ التقليدي الذي يهتم بصورة خاصة بالأفراد وبالفتات العليا من المجتمع، وبخبة (الملوك ورجال الدولة وقادة الثورات)، وبالوقائع (الحروب والثورات)، وبالمؤسسات التي تُهيمن عليها النخب (السياسية والاقتصادية والدينية)، فعلى عكس ذلك برز التاريخ

محطات في تطوّر النّقد التّاريخي عند المسلمين والغربيين

الاجتماعي الذي يهتم بالكتل التي ظلّت على هامش السّلطة، ونقلت الحوليات اهتمامها من دراسة الأحداث السياسية إلى دراسة النّواحي الاقتصادية والاجتماعية⁽³³⁾.

يرجع الفضل في تأسيس هذه المدرسة للمؤرّخين الفرنسيين: لوسيان فافر (Lucien Favre) (ت1956م) ومارك بلوخ (Marc Bloch) (ت1944م)، اللذان أسّسا مجلّة الحوليات، والتي ظهر منها أوّل عدد في 05 جانفي 1929 عن دار نشر: أرمان كولان، تحت اسم: حوليات التّاريخ الاقتصادي والاجتماعي (Les annales d'histoire économique et sociale)، وتركزت أفكار مدرسة الحوليات في:

- المطالبة ببعث تاريخ جديد يُعنى بمسائل لها علاقة بالمجتمع والاقتصاد والذهنيات، ويقلّص من التاريخ السياسي والتاريخ الحديثي، ويعتني بالنّاس العاديين وبالمهمّشين والمغيّبين.
- اعتبرت أنّ مهمّة المؤرّخ ليست -كما تدّعي الوضعية- البحث عن الموضوعية فقط، وإنّما الأهم بالنسبة لها هو شخصية المؤرّخ، لأنّ ما يميّز مؤرّخا عن آخر ليس اكتشاف المصادر التاريخية الجديدة، وإنّما ما يطرحه المؤرّخ من أسئلة وجبهة على تلك المصادر.

- عدم الاهتمام بالتّاريخ القومي الشّوفايني المناهض للألمان، ولا بالعامل القومي حتّى وإن كان هذا العامل مميّز لحركة التاريخ.

- التاريخ مدعوّ حتما إلى أن يشمل ما هو غير مكتوب مثل علم الآثار وعلم الأيقونات.
- إيلاء أهمية بالغة للعالم المعاصر، وهو ما يُفسّر تخصيص المجلّة لبعض المقالات في الثلاثينيات لتجربة الاشتراكية في الاتحاد السّوفياتي، ولسياسة التّوزيع الجديد في الولايات المتّحدة الأمريكية، باعتبار أنّ هدف علم التّاريخ هو فهم الحاضر.

- الشّراكة الدّائمة والتّعاون الوثيق بين مختلف العلوم الاجتماعية مثل علم الاجتماع والاقتصاد، والتركيز على تدعيم الأواصر مع الجغرافيا، مع تبني طريقة العمل الجماعي⁽³⁴⁾.

خلف لوسيان فافر عند وفاته، المؤرّخ الفرنسي: فرناند بروديل (Fernand Braudel) (ت1985) الذي عرفت مدرسة الحوليات في عهده ازدهارا كبيرا، خاصّة وأنّه أقدم على استبدال التاريخ- الحدث (أي منهج التّاريخ التّقليدي القائم على السّرد التّعاقبي للأحداث) بالتّاريخ- المشكلة، سعيا منه للإجابة عن الكثير من الأسئلة، ويتمظهر شمول هذا التّاريخ الجديد في الإحاطة بوقائع الاجتماع البشري كلّها وبتعدّد الأزمنة التاريخية في الزّمن الواحد، وهذا انطلاقا من مؤلّفه الكبير "المتوسّط والعالم المتوسّطي في عهد فيليب الثاني"، هذا المؤلّف الذي أحدث بعد صدور طبعته الأولى في سنة 1949 ثورة علمية كبيرة، جدّدت مناهج التّاريخ وموضوعاته، وقلّبتها رأسا على عقب، الأمر الذي جعل من الكتاب دليل القطيعة بين التّاريخ التّقليدي بمنهجه السّردى الحديثي وبين تاريخ جديد شامل⁽³⁵⁾.

والتأريخ عند بروديل يقوم على تمفصل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي والجغرافي والديمقراطي... ليكون التأريخ دائما على منتصف الطريق، حيث تتقاطع وتتكامّل علوم الإنسان كلّها، ويُعتبر بروديل أول من جمع مختلف علوم الإنسان بمناهجها وأدواتها في مقارنة واحدة شاملة⁽³⁶⁾.

أصبح بروديل فيما بعد الملهم الرئيسي لمجلة الحوليات، التي نشر فيها مقاله الذي رسم بعق مرحلة التأريخ الجديد، وكان ذلك سنة 1958، والذي جاء تحت عنوان: "التأريخ والعلوم الاجتماعية: الأمد الطويل"⁽³⁷⁾. هذا الأمد الذي اعتُبر من أثرى الآفاق التي رسمها التأريخ الجديد، فالتأريخ يمرّ سريعا لكنّ القوى العميقة التي تصنعه لا يمكن استكشافها، واستكشاف تأثيرها إلّا عبر الزمن الطويل على اعتبار أنّ النظام الاقتصادي والاجتماعي يتغيّر ببطء، وقد أعطت نظرية الأمد الطويل الفرصة لتقارب التأريخ مع العلوم الإنسانية، وهو ما أدّى إلى تزايد الاهتمام بمستوى الطبائع (ككيفية الأكل وكيفية اللباس وكيفية السكن...)، الأمر الذي دعا إلى كتابة التأريخ بمنهجية خاصّة من خلال النصوص الأدبيّة والوثائق الأرشيفيّة التي تهتم بالواقع اليومي البسيط، وهي (النصوص الإثنية)⁽³⁸⁾.

وفي سنة 1969 سلّم فرناند بروديل وشارل مورازيه (Charles Morazier)، وجورج فريدمان (George Friedman) مجلة الحوليات إلى فريق جديد مكّون من: أندريه بورغيار (André Burguière)، ومارك فارو (Mark Farrow)، وجاك لوغوف (Jacques Le Goff)، وإيمانويل لوروا لادوري (Emmanuel Le Roy Ladurie)، وجاك روفيل (Jack Revel)⁽³⁹⁾، الذين استكملوا مسيرة سابقهم من المؤرّخين، محاولين في كلّ مرّة فتح حقول تاريخيّة جديدة، ومواضيع مهمّة ذات أبعادٍ اقتصادية واجتماعية وثقافية وذهنية وإيدلوجيّة، كما ركّزوا على تاريخ المهمّشين أو الهامّشين (المنبوذين، المتشرّدين، المجرمين...)، وذلك من أجل إعادتهم للذاكرة، والتعرّف على دورهم في المجتمع، بعدما كانوا منسيين في التأريخ ومقصّيين منه، معتمدين في كثير من الأحيان على المنهج الكميّ الإحصائي، باعتباره منهجا ضروريا في مثل هذه المواضيع.

خاتمة

ختاما لما سبق نستطيع القول أنّ تطوّر النّقد التّاريخي عند المسلمين والغربيين على حدّ سواء مرّ عبر محطات عديدة، كلّ محطة ظهرت فيها آليات جديدة للنّقد، فعند المسلمين بدأ النّقد عندهم من خلال نقد الإسناد وذلك بالتّشكيك في صحّة ناقل المعلومة (الرّاي)، ثمّ تطوّر النّقد إلى التّشكيك في صلاحية النّقل، أي نقد النّاقل والمنقول معا (السّدّ والمتن) وفق آلية الجرح والتّعديل، ثمّ اتّجه المسلمون للتّأريخ بالدّراية، والتي تعني المعرفة المباشرة من جهة والتّأويل العقلي من جهة أخرى، وذلك من خلال رحلاتهم ومشاهداتهم، لتأتي فيما بعد النّظرة الخلدونية للتّاريخ، والتي شجّب فيها ابن خلدون نقل المؤرّخين عن بعضهم أو عن الرّواة دون تمحيص أو تدقيق، كما بيّن الأسباب التي تلزم المؤرّخ على النّقد والتّمحيص.

محطات في تطور النقد التاريخي عند المسلمين والغربيين

أما النقد التاريخي عند الغربيين فقد عرف هو الآخر عدة مراحل إلى أن وصل على ما هو عليه الآن، ابتدأت المرحلة الأولى مع عصر النهضة ركّز فيها المؤرخون على نقد الوثائق والتثبت من صحتها، وفي المرحلة الثانية التي مثلتها المدرسة الوضعانية نجد أن مؤرخيها اهتموا كثيرا بالوثيقة المكتوبة، ومحاولة تجميع أكبر عددٍ من الوثائق، ونقد الوثائق عند الوضعانيين نوعان: النقد الخارجي الذي يُثبت صحة الوثيقة وتاريخها الدقيق، وصاحبها وأصلها، والنقد الداخلي الذي يُثبت مصداقية مضمون الوثيقة، فيما جاءت المرحلة الثالثة مع مدرسة الحوليات التي اهتمت بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي على حساب التاريخ السياسي، وأعلنت القطيعة النهائية مع التاريخ التقليدي الذي يهتم بالأفراد والفئات العليا من المجتمع، حيث اتجه مؤرخوها إلى الاهتمام بالفئات المهمشة، والمواضيع ذات الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والذهنية والإيدلوجية.

الهوامش:

- 1- جمال الدين أبو الفضل أبو الفضل محمد الأنصاري، ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، د. ط، دار المعارف، القاهرة، د. ت، مج6، ج50، ص4517؛ أبو الحسن بن زكرياء، ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، دار صادر، بيروت، د. ت، ج5، ص467؛ عبد الحميد محمد محي الدين ومحمد عبد اللطيف السبكي: المختار من صحاح اللغة، مطبعة الاستقامة، القاهرة، د. ت، ص534.
- 2- محمد، مندور: النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر، 1996، ص14.
- 3- أكرم ضياء، العمري: السيرة النبوية الصحيحة - محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، ط6، مكتبة العلوم والحكم، 1994، ج1، ص12.
- 4- عارف، المخلافي: المستخلص في النقد التاريخي، دار النشر للجامعات، صنعاء، 2014، ص7.
- 5- فاطمة قدورة، الشامي: علم التاريخ - تطور مناهج الفكر وكتابة البحث العلمي من أقدم العصور إلى القرن العشرين -، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 2001، ص234.
- 6- المخلافي: المرجع السابق، ص8.
- 7- أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب، البغدادي: الكفاية في معرفة أصول أهل الرواية، تحقيق: أبو إسحاق إبراهيم الدمياطي، ط1، دار الهدى، مصر، 2003، ج1، ص372.
- 8- السند: هو سلسلة الرجال الموصلة للمتن، بمعنى: "أولئك الرواة المذكورون قبل متن الحديث"، مثلا: روى فلان عن فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ، التسلسل هذا يُسمى: سندا؛ أما المتن: هو ما ينتهي إليه السند من الكلام، أي أنه الكلام المنقول. أنظر: أحمد بن علي بن حجر، العسقلاني: نزاهة النظر شرح نخبة الفكر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989، ص24.
- 9- الجرح والتعديل أو علم الرجال: هو أحد فروع علم الحديث، يُبحث فيه عن أحوال رواة الحديث من حيث اتصافهم بشرائط قبول رواياتهم أو عدمها؛ وهو علم وُضع لتشخيص رواة الحديث، ذاتيا ووصفا وصدقا وقبحا؛ ويتم ذلك بألفاظ مخصوصة متعارف عليها عند العلماء وهي دقيقة الصياغة ومحددة الدلالة، والجرح اصطلاحا: هو رد رواية الراوي، لعلّة قاذحة فيه، أو في روايته من كذب أو فسق أو شذوذ أو تدليس؛ بمعنى: "الطعن في راوي الحديث بما يسلب أو يُخل بعادته أو ضبطه" أما التعديل اصطلاحا: فهو وصف الراوي بالعدالة أو ما يقتضي روايته، بمعنى: "تزكية الراوي والحكم عليه بأنه عدل أو ضابط". أنظر: نورالدين، عتر: منهج النقد في علوم الحديث، ط2، دار الفكر، دمشق، 1979، ص92؛ أيمن فؤاد، سيّد: المرجع السابق، ص16.
- 10- أيمن فؤاد، سيّد: "مناهج النقد التاريخي عند المؤرخين المسلمين"، حوليات إسلامية، ع32، 1998، ص15.

- 11- هو شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي الأصل، القاهري المولد، الشافعي المذهب، نزيل الحرمين الشريفين، ولد سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة، حفظ القرآن الكريم وهو صغير، كما حفظ عدة كتب، برع في الفقه والعربية والقراءات والحديث والتاريخ، وشارك في عدة علوم أخرى كالحساب، والتفسير وأصول الفقه وغيرها، أذن له غير واحد بالإفتاء والتدريس والإملاء، سمع الكثير عن شيخه الحافظ ابن حجر العسقلاني، كان بينه وبين النبي ﷺ عشرة أنفس، حج إلى بيت الله الحرام، ثم رجع إلى المدينة وجاور بها إلى أن مات؛ ألف كتابا إليها النهاية لمزيد علوه وفصاحته، منها: "الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع"، "الجواهر والدرر في ترجمة الشيخ ابن حجر"، "فتح المغيث بشرح ألفية الحديث"، "الإعلان بالتوبيخ على من ذم علم التاريخ"، وغيرها من الكتب، انتهى إليه علم الجرح والتعديل، حتّ قيل: لم يكن بعد الذهبي أحد سلك مسلكه، توفي بالمدينة المنورة، ودفن بالبقيع بجوار مشهد الإمام مالك، ولم يخلف بعده مثله. أنظر: شهاب الدين الحنبلي، ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، 1993، مج10، ص23-24-25؛ نجم الدين محمد بن محمد، الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ج1، ص53؛ جلال الدين بن عبد الرحمان بن أبي بكر، السيوطي: نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق: فيليب حتي، المكتبة العلمية، بيروت، 1927، ص152.
- 12- شمس الدين محمد بن عبد الرحمان، السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التورخ، تحقيق: سالم الظفيري، ط1، دار الصمعي، الرياض، 2017، ص515.
- 13- السخاوي: المصدر السابق، ص515.
- 14- أيمن فؤاد، سيد: المرجع السابق، ص17.
- 15- برجستراسر: أصول نقد النصوص ونشر الكتب، تحقيق: محمد حمدي البكري، دار الميرخ للنشر، الرياض، 1982، ص18.
- 16- أيمن فؤاد، سيد: الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1997، ص. ص95-145.
- 17- أيمن فؤاد، سيد: "مناهج النقد التاريخي عند المؤرخين المسلمين"، المرجع السابق، ص10-11.
- 18- محمد عبد الكريم، الوافي: منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب، ط3، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي- ليبيا، 2008م، ص212-213.
- 19- أيمن فؤاد، سيد: "مناهج النقد التاريخي عند المؤرخين المسلمين"، المرجع السابق، ص12.
- 20- هو عبد الرحمان بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البجائي، أصله من اشبيلية، ومولده ومنشؤه بتونس، رحل إلى فاس وقرطبة وتلمسان والأندلس، وتولّى أعمالا، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس، ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برفوق، وولّى فيها قضاء المالكية، عزل وأعيد، اشتهر بكتابه: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، توفي فجأة بالقاهرة سنة 808هـ- 1406م. أنظر: خير الدين، الزركلي: الأعلام، المصدر السابق، ج3، ص330م.
- 21- أبو زيد عبد الرحمان بن محمد، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، د. ط، دار الفكر، بيروت، 2000م، ج1، ص06.
- 22- صالح، شقير وهيتم توفيق العطواني: "إشكالية النقد التاريخي عند ابن خلدون"، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، ع2، مج37، دمشق، 2015، ص231.
- 23- ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص17.
- 24- المصدر نفسه، ص42.
- 25- محمد، أبجي: المرجع السابق، ص07.
- 26- فرانز، روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983، ص319.

- 27- أيمن فؤاد، سيّد: المرجع السابق، ص 27-28.
- 28- هاري إلمر، بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد عبد الرحمان برج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1987، ج 2، ص 50؛ حسين، مؤنس: التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، 1984، ص 68؛ محمد، أبجي: المرجع السابق، ص 8.
- 29- هاري إلمر، بارنز: المرجع السابق، ص 51.
- 30- الهادي، التيمومي: المدارس التاريخية الحديثة، ط 1، دار التّوير للطباعة والنّشر، بيروت، 2013، ص 89.
- 31- المرجع نفسه، ص 89-90.
- 32- المرجع نفسه، ص 83-84-90.
- 33- خالد، طحطح: الكتابة التاريخية، ط 1، دار تويقال للنّشر، الدّار البيضاء- المغرب، 2012، ص 86-87.
- 34- الهادي، التيمومي: المرجع السابق، ص 180-181.
- 35- فرنان بروديل: المتوسّط والعالم المتوسّطي، تعريب وإيجاز: مروان أبي سمرا، ط 1، دار المنتخب العربي، بيروت، 1413هـ- 1993م، ص 5-8 من مقدّمة المترجم.
- 36- المرجع نفسه، ص 10-11.
- 37- جاك، لوغوف: التاريخ الجديد، ترجمة: محمد الطاهر المنصوري، ط 1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ص 98.
- 38- المرجع نفسه، ص 113-115.
- 39- المرجع نفسه، ص 98.